

اللغة الرمزية من خلال الصناعة التقليدية زربية متليي الشعانبة أنموذجا

الباحثة بوبكر حميدة /إشراف أ.د.مباركة بلحسن

جامعة وهران 2 محمد بن احمد

"يفنى مال الجدين و تبقى حرفة اليدين " حكمة معبرة عن ابداعات أنامل اليد، فالموروث من المال لايد سيفنى و إن طال الزمن أما الموروث من الحرف و الصناعات سيجعل صاحبه دائم النفع مما تجيده يداه.

تعد الصناعة التقليدية اليوم موردا هاما يحمل مستقبلا واعدا للتنمية المستدامة في الجزائر، خاصة و أن الجزائر تحتوي على منتوجات حرفية ولا أروع، و هذا بعد التهميش الذي شهدته بعد دخول التكنولوجيا و التقنيات الحديثة على حياة المواطن. و يعود الاهتمام بالصناعة التقليدية أمرا ضروريا لأنها أداة جيدة لحفظ تاريخ و عراقة أي أمة، و ذلك بتلقين أساسياتها للأجيال، هذا عاد عن كونها وسيلة عيش للكثير من الأفراد. حُدد مفهوم الصناعات التقليدية على أنها: "كل نشاط إنتاج أو ابداع أو ترميم أو صيانة أو إصلاح أو أداء خدمة يطغى عليها الطابع اليدوي" (1) كما تُعرف على أنها عبارة عن تلك الصناعات التي تعتمد في غالب الأحيان على المجهود العضلي الذي يتطلب العمل اليدوي بالدرجة الأولى مع استخدام وسيلة بسيطة.(2) فالحرف التقليدية هي حرف يعود تاريخ نشأتها إلى التاريخ الماضي، تاريخ الآباء و الأجداد و استمرت مع تعاقب الأزمنة و الأجيال، فكل جيل يرثها عن الجيل الذي سبقه و يورثها للجيل الذي يليه.

فالزربية الجزائرية مثلا عروس الصناعات التقليدية، تعد كتابا مفتوحا عبر صفحات التاريخ، تم فيها تدوين رموز و دلالات و رسومات تدل على الأنماط المعيشية عبر أزمنة تطورها. و تعتبر صناعة النسيج من بين المهارات المعبرة عن الفن الشعبي النسوي في الجزائر، إذ تحضى حرفة النسيج بأهمية كبيرة في المجتمع الجزائري و هذا ما يستوجب الحفاظ عليه كنوع من التراث الوطني و العمل على ترقيته و ذلك لما تقدمه من خدمات للاقتصاد الوطني. و في هذا الصدد يقول الأستاذ أبو القاسم سعد الله رحمه الله: ""كان النسيج من الصناعات التي تفتخر بها الجزائر، و قد كانت له صناعة كاملة و أسواق رائجة في مختلف أنحاء البلاد" (3). يُقصد بكلمة " زربية " هي ما يداس بالأرجل، سواء كان ذو وبر قصير أو ذو عقد (4) و أصل الكلمة فارسي و هو "Zirppa" (5) و قد يختلف هذا اللفظ عبر أرجاء العالم العربي فقد ذكر مصطلح الزربية في القرآن الكريم في سورة الغاشية: " و نمارق مصفوفة و زرابي مبلوثة". كما يمكننا ربط أهمية الزربية الجزائرية بالاتوات و الهدايا التي كانت تُقدّم من طرف السلاطين و الأمراء، يخبرنا Devoulx في كتابه التشرifications أن داي الجزائر كان يبعث سنويا هدايا لسلطان القسطنطينية من بينها: اثني و ثلاثين زربية من الجنوب، و خمسة و عشرون حايكاورقليا أحمر، ثلاثون حايكاورقليا أبيض، أربعة و أربعون حايكا من تلمسان سنة 1758. أما في سنة 1761 تم ارسال أربع و ثلاثين زربية من الجنوب(6). و يُشير إلينا ابن خلدون في مقدمته أنه تم التوقيع في عام 800 على اتفاق بين الخليفة هارون الرشيد و ابراهيم ابن الأغلب، و كانت الاتفاقية عبارة عن جزية سنوية قيمتها ثلاثة عشر مليون درهم و مائة و عشرون زربية (7). و هكذا تم نقل زرابي من المغرب العربي إلى بغداد لفترة تفوق القرن. و من بين أهم المناطق التي اشتهرت بصناعة الزرابي في الجزائر نجد: أفلو، تيزي وزو، سطيف، خنشلة، البيض و غرداية، و ما يميز صناعة الزرابي في هذه المناطق هو الاختلاف في انتقاء الألوان و الأشكال و استخدام الذوق المحلي لكل منطقة بالإضافة إلى الابداع الفردي.

و الرمز كمُعطى تاريخي، له خلفياته الثقافية و الزمنية المتعددة إلا أن ارتباطه مباشرة بالزربية أضفى عليها نوعا من المسح الأنثروبولوجي إذ أنه يحاكي الواقع الذي عاشته الأسرة الجزائرية عبر أجيال، هذا عاد أنه تجسد في كل ما يلمس الحياة اليومية للجزائري قبل و إبان الاستعمار الفرنسي، حتى أن هناك من يعتبره رسالة للأجيال عبر الزمن. و قد ارتبط أيضا بالوشم على الجسد و على الأواني الفخارية و حتى على اللوحات الفنية و الجدارية، إلا أن علاقته بالزربية كان له لمسة خاصة، فالنسيج كان من خصوصيات المرأة التي تحظى بامتياز خاصة في تمازج الألوان و الأشكال، هذا و أن هناك زرابي خاصة دون غيرها لمناسبات الأسرة الجزائرية، ذلك أن العروس كان يتم تجهيزها بكل ماهو صنع يدوي لذا كانت تحرص على كل تفاصيل الجهاز بيدها لأن الفراش يعتبر من أهم طقوس الزواج التي تحظى المرأة على اقتناءه بعناية، و كل هذا أدى بطبيعة الحال إلى اكتشاف رموز جديدة خاصة بعد المصاهرات الأسرية التي كانت تتم بين كبرى القبائل الجزائرية ليصب في قمة التنوع الثقافي عبر عقود.

فالمجتمع الجزائري مجتمع عريق يعيش داخل فسيفساء من التعدد الثقافي، لأنه يجمع بين الشاوية و القبائلية و الميزابية و الترقية، و هذا ان دل على شيء فإنما يدل على غنى الارث الثقافي لهذه المناطق، و العادات و التقاليد هي وليدة هذا التراكم الثقافي عبر الأجيال و الأزمنة من خلال تعاقب الحضارات على المنطقة الواحدة. و هذا ما تبنيه الرموز و التصاميم فهي تعكس الخصوصية الحضارية المستوعبة من طرف المجتمع الذي ينتمي إليه الحرفي، لأن الاشكال الرمزية المختلفة المسجلة على الزرابي الجزائرية هي بصمات ترسم و تؤثر اثنوغرافية مجتمع محلي في أشكال و نصوص و معاني مشفرة. و تعود أهمية دراسة مدلولات الرمز إلى معرفة طريقة تفكير شعب معين في حقبة معينة لأن " السلوك الرمزي هو سلوك انساني " (8) و أبسط تعريف له هو: " أنه صلب الحياة الاجتماعية باعتباره لغة اتصال و حوار بين أفراد المجتمع الواحد " (9) حيث يتمثل في دلالات معينة من خلال الرسوم و الأشكال و غيرها من أدوات التعبير، و قد استمر و تطور الرمز حتى العصر الاسلامي أين تم تصنيفه إلى ثلاثة أنواع رئيسية: و هي " إما رموز دينية، رموز سياسية أو اجتماعية " (10) لنجد الرموز اليوم تطفئ على الحياة الاجتماعية بشكل كبير، فهو ينعكس على الكثير من مظاهر الحياة لأهميته.

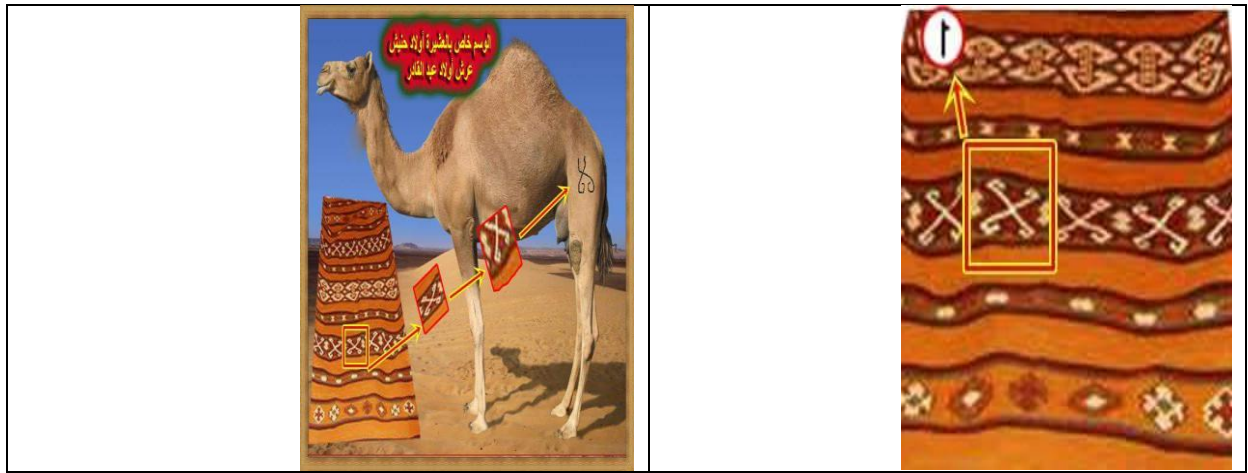
تُعد منطقة متليلي الشعابنة إحدى مناطق ولاية غرداية التي تبعد عنها 40 كلم، فالزربية الشعابنية من أشهر الزرابي المعروفة بالجنوب الشرقي الجزائري، تتفنن نساء هذه المنطقة منذ نعومة أظافرها في حياكة هذه الزربية التي تعد مصدر رزق بالنسبة لهن، كما يشكل هذا النشاط بالنسبة لهن شكلا من أشكال التعبير الصامت عن الوجدان، كما تطبعها الأهواج النسوية الشعبية التي ترافق عملية غزل و نسج الصوف. فرموز و ألوان الزربية الشعابنية تحمل دلالات اجتماعية و أبعاد انسانية، و عادة ما تعبر عن الأدوات القديمة التي كان يستخدمها المجتمع الشعابني فنجد على سبيل المثال: المشط، الأفعى، المقص المترد و القمري... الخ و بناء على تلك الرموز المستعملة يمكن أن نقرأ صورا و مشاهد من الحياة اليومية.

كذلك ارتبطت الرموز بهذه المنطقة بوسم الابل على فخذه الأيسر الذي من خلاله يمكن التمييز بين العشيرة و الأخرى خاصة، خاصة و أن منطقة متليلي الشعابنة تتميز بنظام قبلي عشائري، كأن نجد مثلا رمز المقص (الصورة 1) الخاص بعشيرة أولاد حنيش عرش أولاد عبد القادر: تحتوي هذه العشيرة على خمسة و أربعون عائلة، ففي الاحصاء الفرنسي عام 1896 وصل عدد بغيرها ما يقارب 510 رأس، كما اشتهرت بكثرة ماشيتها مم جعلها تحسن و تحترف مهنة جز الصوفالتي تتطلب المقص بالدرجة الأولى حتى أصبح محل رزق لهم بفعل هذه الأداة البسيطة و استغلتها المرأة الشعابنية في تزيين زربيتها به و أدخلت عليه بعض التعديلات و جعلته شكلا هندسيا يسهل نسجه .

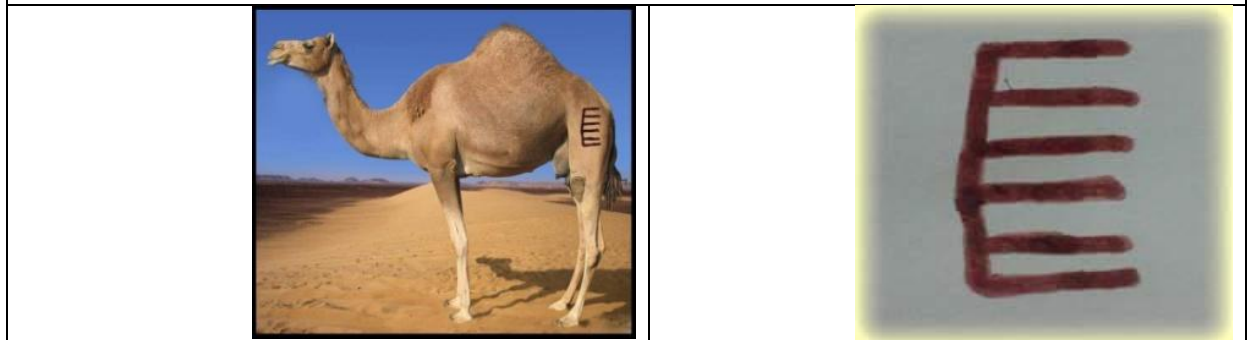
أما رمز المشط (الصورة 2) هو رمز خاص بعشيرة أولاد ابراهيم عرش اولاد علوش، تمتاز هذه العشيرة بكثرة نسائها التي وصل عددها إلى 111 امرأة عام 1896، امتازت بالجمال و قوة الذكاء، كما لقبت هذه المنطقة بانثى و عشرون لقب و كلها تمتاز بثقافة نسائها و جمالها. كانت المرأة الشعابنية تستعمل هذا النوع من المشط المسنن في حياتها اليومية و جعلته في نفس الوقت رمزا زينت به الزربية.

و هناك رمز رجل القمري (الصورة 3) و هو رمز مستمد من البيئة التي كان يعيش فيها الانسان الشعابني حيث تميزت هذه المنطقة بكثرة طائر القمري و اشتهرت بتريته، فسميت بعشيرة القمارى نسبة لهذا الطائر. (11)

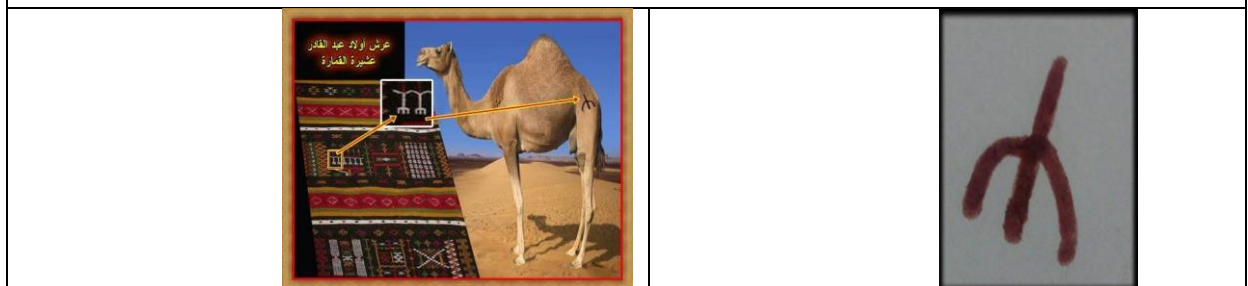
و اخيرا فإن الأشكال لا ترتقي إلى رموز إلا إذا كانت محملة بالقيم الاجتماعية و الثقافية و الفكرية للبيئة لأن الرمز ليس مجرد شكل في حد ذاته، بل يتصل بموضوع في حياة الفنان الشعبي و عاداته و تقاليده و مجتمعه، و المجتمع هو الذي يحدد قيمة الرمز و يضيف على الأشياء المادية معنى فتصبح رموزا. و تبقى الزربية الشعابنية تلك الرسالة المشفرة المليئة بالمشاعر و الأحاسيس التي حاولت المرأة البوح بها في صورة فنية مزخرفة.



الصورة رقم 1: رمز المقص



الصورة رقم 2: رمز المشط



الصورة رقم 3: رمز رجل القمري

الهوامش:

- 1- وزارة المؤسسات صغيرة والمتوسطة والصناعة التقليدية، دليل الحرفي، الجزائر، ص 02
- 2- Anoup Kumar Singh, Sumbulfatima : Role of handicraft sector in the economic development of Uttar Pradesh, issue international journal of research Vol 3, january, India, 2015. P 01
- 3- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من 1830-1954، الجزء الثامن، دار الغرب الاسلامي، ط1، بيروت، 1998. ص358
- 4- غرفة الصناعة التقليدية و الحرف لولاية الأغواط، صناعة الزرابي التقليدية: دورة تكوينية لفائدة حرفي صناعة الزرابي التقليدية، من 09-29 إلى 08-10-2015، الأغواط، سبتمبر، 2015.
- 5- عائشة حنفي، ساجية عاشوري، الزرابي الجزائرية: مجموعة المتحف الوطني للآثار القديمة، المتحف الوطني للآثار القديمة، الجزائر، 2005، ص 12.
- 6- Devoulx, Tachrifat : Recueil de notes historiques sur l'administrartion de l'ancienne régence d'Alger, imprimerie du Gouvernement, Alger, 1852,p 57-58.
- 7- سامية زنادي شيخ، في نسيج الزمن: ترجمة عبلة منور، سلسلة تراث الجزائر، منشورات أبيك، الجزائر، 2007، ص 13.
- 8- منى محمد أنور عبد الله، مداخلة بعنوان: الرمز في الفن الشعبي التشكيلي بمصر و استخدام رموز الحب و الكراهية في تصميم المنتجات، المؤتمر الدولي الثالث لكلية الآداب و الفنون بعنوان: ثقافة الحب و الكراهية، جامعة فيلادلفيا، أكتوبر، 2008، ص 02.

- 9- محمد الجوهري و آخرون، التراث الشعبي في عالم متغير: دراسات في إعادة انتاج التراث، عين للدراسات والبحوث الانسانية و الاجتماعية، القاهرة، ط1، 2007، ص 194.
- 10- منى محمد أنور عبد الله، مرجع سابق، ص 03.
- 11- مقابلة مع الباحث مختار شنينة، يوم 02-11-2016 على الساعة 10.30 صباحا، ولاية غرداية دائرة متليلي الشعانية.